القيمُ المعنويّةُ
في شعرِ الغزلِ الأنـدلسيِ

The Moral Values in the Andalusian Flirtation Poetry

م. د. إيمان حميد هدرس
Dr. Eman Hamid hidris

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب
Al-Mustansiriya University/College of Arts

emanhidris@uomustansiriyah.edu.iq

الملخص

اشتمل البحث الموسوم بـ(القيم المعنويّة في شعر الغزل الأندلسي) على محاولة لدراسة أثر هذه القيم في مجمل نتاج الغزل الأندلسي، وما يتبعه من هيمنة المفاهيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة على الحركة الشعريّة في الأندلس، وقد تمخّض البحث في هذا الموضوع عن نتائج مهمّة نوجزها بالآتي:

- توصّل البحث إلى أنّ صور العفّة والحياء قد تكرّرت عند شعراء الغزل الأندلسي، فقد استثمروا تجارب الحبّ العذريّ المستقاة من التراث العربي في توشيح قصائدهم الغزليّة.
- رصد البحث الثنائيّات المتضادّة في شعر الغزل الأندلسي، ولا سيما الوصل والهجر بوصفها مفاضلات تبيّن حال الشاعر في أثناء الحزن والفرح.
- أكّد البحث أنّ الحبّ لا يفرّق بين صاحب الجاه والسلطة، والآخر من عامّة الشعب، فكلاهما يتذلّل للمحبوبة، فالحبّ فوق المناصب والميول والاتّجاهات.
- أوضح البحث أنّ الوفاء والاعتذار مظاهر حضاريّة وجدانيّة، تنمّ عن عاطفة صادقة ترقّ لها الأفئدة، إذ مثّلت هذه القيم انفعالات النفس الإنسانيّة لشعراء الغزل الأندلسي تجاه من يحبّون.

الكلمات المفتاحية: القيم المعنوية، الغزل، الأندلس.

Abstract

The entitled research (The Moral Values in the Andalusian Flirtation Poetry) is included a trial to study effects these values in the whole of Andalusian flirtation production. And what follow it of dominance of ethical and social concepts on the poetry movement in Andalus. The research has concluded about this subject for significant results. We summarize them as following :

- The research has deduced that matters of chastity and modesty have recurred at poets of Andalusian filtration. They have took advantage experiences of virginal love that are taken from Arabian heritage to frame and beautify their flirtation poetries
- The research has observed the opposite couples in Andalusian Flirtation Poetry , particularly communication and abandonment to be described as comparisons which manifest the poet's condition while his sadness and joy .
- The research confirms that the love does not differ between the owner of the prestige and power or another who are from common people. Where both of them flatter to the darling. Whereas the love is over positions , trends and inclinations.
- The research has discussed that loyalty , apology are civilized and sentimental phenomena. They are caused by honest emotion that makes hearts to be kind. Where these values represented the human self emotions for Andalusian flirtation poets towards whom they are loving.

Keywords: moral values, spinning, Andalusia.

توطئةٌ

القيمةُ في اللّغةِ والاصطلاحِ:

تذهبُ أغلبُ المعاجمِ العربيّة إلى أَنَّ القيمةَ هي: «واحدةُ القيمِ، وأَصلُهُ الواو؛ لأنّه يقومُ مقام الشّيء»[١]، «ويقال: قُوّمِتْ السّلعة. وأَهل مكة يقولون: استقامتْ السّلعة»[٢]، وهي بمعنى الاستقامة بحسب ما يشير ابن منظور[٣].

والاستقامةُ هي الاعتدالُ، قال: «أَبو زيد: أَقمتُ الشّيءَ وقوّمتُهُ فقامَ، بمعنى استقام، والاستقامة: اعتدال الشّيء واستواؤه»[٤]، ومنهُ قولُهُ –تعالى– في كتابِهِ الكريمِ: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٥]. أي الدّين المستقيم، ومنه قولُهُ –تعالى– في كتابه الكريم: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[٦]، أي ثمينةٌ.

ولعلَّ – ما جمعَهُ اللّغويون في المعاجم القديمة عن القيمة – لا يعدو كونه مفهوماً متوافقاً عن القيمة بمعناها الاصطلاحي، ولا سيما القيم المعنوية ذات المعاني الأخلاقية والاجتماعية.

(١) الصّحاح: (مادة قوم)، لسان العرب، ابن منظور، (مادة قوم)، وينظر: القاموس المحيط (مادة قوم).
(٢) الصّحاح: (مادة قوم)، وينظر: معجم مقاييس اللغة: (مادة قوم).
(٣) يُنظُر: لسان العرب، ابن منظور، (مادة قوم).
(٤) المصدر نفسه: (مادة قوم).
(٥) سورة التوبة: الآية ٣٦.
(٦) سورة البينة: الآية ٢– ٣.

القيمة في الاصطلاح:

القيمُ هي مجموعةُ الأفكارِ والأحكامِ الَّتِي يتبنّاها الفردّ عن الكون والحياة والإنسان، الَّتِي تتكون لدى الفرد والمجتمع عن طريق التّفاعل مع المواقف والخبرات بما يتفق مع إمكانياته واهتماماته مباشرة أو غير مباشرة عبر الالتزام بالمعايير الأخلاقية والاجتماعية[١].

وهذا يعني أن القيم في النّص الأدبيّ تتطلّب «مقياسًا أو معيارًا نحكم بمقتضاه ونقيس به ونحدِّدُ على أساسه المرغوبَ فيه أو المرغوبَ عنه»[٢].

ولا سيَّما في مجال التّذوق الفنّيّ.

فالقيمُ –على وفق هذا الفهم– «مستوى أو معيار للانتقاء من بين بدائل أو ممكنات اجتماعيّة متاحة أمام الشّخص في الموقف الاجتماعيّ»[٣]، وهذا يعني أنَّ التّقييم يُسهمُ كثيرًا في «الحياة الاجتماعية الخاصّة والعامّة، فالتّقاليدُ والقوانينُ والقيادة والسّمعةُ تُمثِّلُ ظواهر يكون فيها التّقييم شيئاً جوهريًّا)[٤]، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ فيدلُّ على أَنَّ القيمة مفردة تُطلَقُ «على كُلِّ ما هو جديد باهتمام المرء وعنايته لاعتبارات اقتصاديّة أو نفسيّة أو اجتماعيّة أو أخلاقيّة أو جماليّة»[٥]؛ لذا أضحت القيمةُ موضعَ اهتمامٍ وتقديرٍ من

(١) يُنظُر: القيم الإسلامية في التّعليم وأثرها على المجتمع، محمد أمين الحق، دراسات الجامعة الإسلامية العالمية، المجلد التّاسع، ٢٠١٢م: ١.

(٢) بحث في القيم، أروى بنت عبد الله بن محمد، جامعة الامام محمد بن سعود، كلية الشّريعة، ١٤٣٩هـ: ١٤٣.

(٣) سيكولوجية القيم الإنسانية، د. عبد اللطيف خليفة، القاهرة، دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط١، ٢٠١٢م: ٢٨.

(٤) علم الاجتماع النّظري – كارل منهايم– ترجمة د. احسان محمد الحسن، بغداد، دار الكتب للطباعة والنّشر، ١٩٩٣: ١٨٧.

(٥) القيم الجمالية في شعر المرأة الأندلسية، د. احمد حاجم الرّبيعي، عمان، دار غيداء للنشر والتّوزيع، ط١، ٢٠١٦م: ١٣.

الأفرادِ والجماعاتِ، لأنّها تمثّلُ مجموع المعتقدات والأفكار والعادات الَّتِي يؤمن بها الفرد والَّتِي تعمل على توجيه رغباته واتجاهاته نحو السّلوك المقبول والمرفوض(١).

من هنا يسعى بحثنا الموسوم بـ«القيم المعنوية في شعر الغزل الأندلسيّ إلى تبيان أثر هذه القيم في المنظومة القيميةِ الأخلاقيّةِ لشعراءِ الغزلِ الأندلسيِّ بوصفِها ضابطًا أخلاقيًّا واجتماعيًّا مؤثراً في مجملِ الحركةِ الشّعريّةِ الأندلسيّةِ الَّتِي تتَّخذُ من الذّاتِ الشّاعرةِ أساسًا ومقياسًا لها.

الحياءُ:

لا شكّ أنّ حياءَ المرأة صفةٌ من صفات الجمالِ الرّوحيِّ والخلقيِّ المستحبِّ في المرأة العربيّةِ، بل هو من مكمّلاتِها في نظر الرّجل، فهو دليلٌ على تصوّنها وعفّتها وأنوثتها المستكملة لكلّ معاني الجمال الأنثويّ.

فالحياءُ والخجلُ من معاني الجمال الأنثويِّ الَّتِي حرص الشّعراءُ الأندلسيّون على تصويرِهَا في أشعارِهِم، بوصفِها من القيم النّبيلةِ الَّتِي حثَّ عليها المجتمعُ العربيُّ الإسلاميُّ آنذاك، فالحياءُ صفةٌ جماليّةٌ وثيقةُ الصّلةِ بالعفّةِ، بل إنّها أعمُّ منها لأنَّها تتناولُ ما لا تتناولُهُ العفّةُ، فقد تكون المرأة عفيفةً ولكنّها تبدي محاسنها للرِّجال وتبتسمُ لهم، ولكنّ المرأةَ ذاتَ الحياءِ لا تفعلُ ذلك(٢).

وقد اعتاد الشّعراء الأندلسيّون تصويرَ هذه الصّفة الخلقيّة بوصفها مظهراً جماليّاً يزيد من الصّفات الرّوحيّة للمرأة المحبوبة، فقد تكررت "لفظةُ حياءٍ وخجلٍ واستحياءٍ كثيراً في أشعارهم، ممّا يدلُّ على أنّ لهذه القيمة مكانتَها ومداها في نفوسِ الشّعراءِ، فاتّشحَ الحياءُ لديهم بطابع الوقارِ، وكان له دلالاتٌ واسعةٌ امتدّت لتشملَ صونَ

(١) يُنظُر: القيم في الشّعر الجاهلي، د. توفيق ابراهيم صالح، عمان، دار غيداء للنشر والتّوزيع، ط١، ٢٠١٩م: ١٣.

(٢) ينظر: الغزل في العصر الجاهلي: ٧٤.

العرضِ وغضِّ الطّرفِ وحفظِ السّرِّ والانقباضِ عن الكلام واحمرارِ الوجهِ وعرقِ الجبينِ، وغيرها من المعاني والدّلالات الَّتِي طالعنا الشّعراء بها في نماذجهم"[١] فهذا ابنُ عبدِ ربِّه يقولُ في حياءِ الحبيبةِ[٢]

إذا جِئتُهَا صَدَّتْ حَيَاءً بِوَجْهِهَا فَتَهْجُرُنِي هَجرًا أَلَذَّ مِنَ الوَصلِ

وفي المعنى نفسِهِ يقولُ في قصيدة أخرى[٣] :

أَبِيتُ تَحْتَ سَمَاءِ اللّهوِ مُعتَنِقًا شمسَ الظهيرةِ في ثوبٍ مِنَ الغَسَقِ
بيضاء يحمرُّ خدَّاها إذا خجلتْ كما جرى ذهبٌ في صَفحتَيْ وَرِقِ

يصوّرُ الشّاعرُ لحظةً من لحظات الودِّ في لوحةٍ جميلةٍ تكشفُ فيها الحبيبةُ عن وجهِهَا الأبيضِ الَّذِي اكتسى بحمرةِ الحياءِ؛ خجلاً عند اللّقاء، وفي هذا المعنى يقول ابن خفاجة (ت٥٣٣هـ)[٤]:

غازلتُه مِنْ حبيبٍ وجهُهُ فَلَقُ فما عدا أن بدا في خدِّهِ شَفَقُ
وارتجَّ يعثُرُ في أذيالِ خجلتِهِ غصنٌ بعطفيهِ مِن إستبرقٍ وَرَقُ

ويقول أبو بكر بن القوطية وقد اتخذ من النّقاب سبيلاً للحياء[٥]:

حتّى إذا راضَها سفيرا حدت بوجهٍ من الحياءِ
وانتقبت بالنّباتِ عنهُ والتحفت منهُ في رِداء

(١) القيم الحضارية في الشّعر الاندلسي، محمد جبار الخزرجي كلية الاداب الجامعة المستنصرية اطروحة دكتوراه ٢٠١٢: ١٤٩.

(٢) ديوان ابن عبد ربه: ٢٠٤

(٣) المصدر نفسه: ١١٧.

(٤) ديوان ابن خفاجة: ١٧٦.

(٥) شعر ابو بكر بن القوطية (من اعيان المائة الخامسة)، صنعة هدى شوكت بهنام، مجلة المورد، م١٤، ع١، ١٩٨٥م:٩٧.

وقد اتخذ البعض من طيف الخيال ملاذاً له في الثّبات على الحياء وفي ذلك، يقول ابو مروان عبد الملك بن غصن الحجاري[١]:

أَعاتِبُ فِيهِ ذكرَ خِّلي كرامةً وأخجلُ من طيفِ الخيالِ المسلمِ
أرى نوب الدّنيا تروعُ وتفتدي فمن فَرَحٍ ناءٍ وهمٍّ مخيمِ

ويشيرُ ابن خاتمة وقد جعل من نظراتِ النّرجِسِ معادلاً موضوعياً لحيائِهِ، فيقول[٢]:

لولا حيائِي من عُيونِ النّرجسِ للثمت خد الورد بين السّندس
وَرَشفتُ من ثغرِ الإقاحةِ ريقَهَا وضَمَمْتُ أعطافَ الغُصُونِ الميَّسِ

إنّ تمسُّكَ الأندلسيّين بالحياء دليلٌ عن تصوُّنِهَم وتعفُّفِهم فـ"الحياء كله خير[٣] كما يقول نبيُّنا الكريمُ محمدٌ ﷺ وفي ذلك يقول ابن جابر الأندلسيّ ناصحًا[٤]:

قالَ الرّسُولُ " الحياءُ خيرٌ" وعَن فَاصْحَبْ مِنَ النّاسِ ذا حَيَاءِ
قَلِيلِ الحَيَاءِ فابْعدْ فخيرُهُ ليسَ ذَا رَجَاءِ

ويحذّرُ ابنُ جابر في قصيدة أخرى من مصاحبة قلِيلِي الحياءِ، فيقولُ[٥]:

حياءُ المَرءِ يزجُرُهُ فَيَخشَى فخَفْ مَنْ لا يكُونُ له حياءُ
فَقَد قالَ الرّسُولُ بأنّ مِمَّا به نَطَقَ الكِرامُ الأنبيَاءُ
إذا ما أنتَ لم تَستَحِ فاصْنَعْ كما تختارُ وافعلْ ما تشاءُ

(١) اخبار وتراجم اندلسية: ٢١٩.
(٢) ديوان ابن خاتمه الانصاري: ٢١٠.
(٣) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار احياء التّراث، (د.ت): ١/ ٦٤.
(٤) شعر ابن جابر الاندلسي: ١٧
(٥) المصدر نفسه: ١٧.

مشيراً –بذلك– إلى حديثِ الرّسولِ الكريمِ محمّدٍﷺ: (إنّ ممّا أدركَ النّاسُ من كلامِ النّبوةِ إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شِئْتَ)[1].

فالحياءُ سمةٌ ملازمةٌ للمرأة ذات الخلق الرّفيع، وفي ذلك يقول ابن عبدِ ربّهِ راصداً التّدرُّجَ اللّونيَّ في خدِّ الحبيبةِ من الدّرِّ إلى العقِيقِ[2]:

ما إنْ رأيْتُ ولا سَمِعْتُ بمِثلِهِ درًّا يعودُ من الحياءِ عقيقا

وفي السّياق نفسِهِ يقُولُ ابنُ هانِئ[3]:

خالستُهُ نظرًا وكان موردًا فأحمرَّ حتّى كادَ أن يتلهَّبَا

ويقول الرّماديّ في السّياق نفسِهِ:

وكأن درَّ الخد يُكسى حمرةَ الـ ياقوتِ مِن نظرِ العُيُونِ إليهِ
وكأنَّ خجلتَهُ إذا ما فارقَتْ وجناتِهِ عادت إلى خدَّيهِ[4]

–من هنا– يتبيَّنُ لنا أنّ الحياءَ قيمةٌ تميَّزت بها النّساءُ الأندلسيّات بوصفِها سمةً من سماتِ الجمالِ المثاليِّ الَّتِي طالما حلمَ بها العديدُ من الشُّعراءِ الأندلسيّين، بل وازدادوا تعلُّقًا بها.

(١) صحيح البخاري ابو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت: ٢٥٦ه)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، ١٤٠٧ه، ٣/ ١٢٨٤.

(٢) ديوان ابن عبد ربه: ١٣٨.

(٣) ديوان ابن هانئ: ١٩٣.

(٤) شعر الرّمادي: ١٣٤. وينظر: ١٣٠.

الدّلال:

كان الجمالُ ولا يزال بوصفِهِ مفهومًا معنويًّا يتّخذُ من المرأة أساسًا ومرتكزًا له "فالمرأةُ تمثّلُ صبغةَ الجمالِ الأساسيّةِ الَّتِي يصطبغُ بها الوجودُ برقّتِهَا وأنوثتِهَا وتكوينِها الفطريّ الَّذِي تشكّلُ العواطفُ والمشاعرُ العناصرَ الأساسيّةَ فيه[1]" فهذه ولّادة بنتُ المُستكفِي كتبَتْ على الجانِبِ الأيمنِ من ثوبِها[2]:

أنَا والله أصلُحُ للمَعَالِي وأمشِي مِشيَتِي وأتِيهُ تِيهًا

إنَّ هذا الأسلوبَ الَّذِي انتهجتْهُ المرأةُ كان بدافعِ فطرتِهَا؛ كي تتحسَّسَ مكانَتَهَا وقيمتَهَا في نفسِ المُحبِّ الَّذِي طَالَمَا تغزَّلَ بحُسنِها ودلالِها[3]. يقولُ ابنُ حمديس متغزّلاً بحُسنِ لفظِها، ومصوِّرًا دلالَها وذلّهِ[4]:

ذاتُ لفظٍ تَجني بسمعِكَ منهُ زَهَراً في الرّياضِ نداهُ طَلّ
لا يُمَلُّ الحديثُ منها معادًا كانتشاقِ الهواءِ ليسَ يُمَلُّ

***

كلَّ عتبٍ سمعتَ منها ومنّي فهو منها دَلّ ومنّيَ ذُلّ

وهذا الحكيمُ أميّةُ بنُ أبي الصّلتِ يتغزّلُ بجمالِ محبوبتِهِ، وقد زادَها الدّلالُ والحياءُ جمالاً، حتّى أضحَتْ وكأنَّهَا سَكرَى من غير خمرٍ، فيقولُ[5]:

(١) تجليات الترف في بنية القصيدة الأندلسية (عصر ملوك الطّوائف)، أماني أحمد عبد طه، دمشق، الهيئة العامة السّورية للكتاب، ٢٠١٩م، ١٥٣.

(٢) الذّخيرة: م١/ ٤٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ١١٥.

(٤) ديوان ابن حمديس: ٣٥٣.

(٥) ديوان الحكم بن أبي الصّلت: ١٣٩.

بيضاءُ فضَّلَها في الحُسنِ خالقُنا فأصبحتْ وهيَ في الأرواحِ تحتكِمُ
سَكرَى من الدّلِّ لكنْ ما بها سَكَرُ سقيمةُ اللَّحظِ لكنْ ما بها سَقَمُ

إنّ جمال مشيةِ المرأةِ وبطيءِ خطواتِها دليلٌ على سحرِها وجاذبيّتِها، فالمشيةُ البطيئةُ الخُطَى «أدلُّ على الرّزانةِ، وأنسبُ بالمرأة المنعّمةِ، وأكشفُ عن جمالِهَا»[(١)]، وإلى ذلك يشيرُ ابنُ شهيد الأندلسيُّ، قائلاً[(٢)]:

فمشتْ نَحوِي وقد ملّكتُها مشيةَ العصفورِ نحوَ الثّعلبِ

يشبّه الشّاعر جمال مشي المرأة وبطئ خطواتها بمشي العصفورِ؛ ممّا يدلُّ على القيمة الجماليَّةِ لمشي هذه الحركة الَّتِي تسير بخطواتٍ قصيرةٍ متمهّلةٍ؛ لتجذبَ وتسحرَ كلَّ من يراها.

من هنا نرى أنّ الشُّعراء الأندلسيّين يُشيدُون بالحركةِ والهيئةِ الَّتِي يميدُ بها الجسدُ أو العضوُ[(٣)]، فهذا عليٌّ بنُ أبي الحُسين[(٤)] يقول مشبّهاً مشيةَ المرأة بالسّحابِ البطيءِ الحركةِ[(٥)]:

وكأنَّ مشيَتَها تهادي ديمةٍ والوصلُ يبرُقُ والتّجنّي يرعُدُ
نشوانُ من سكرِ الشّبابِ كأنَّهُ غصنٌ تجوزُ بهِ الرّياحُ وتقصدُ

(١) الغزل في الشّعر الجاهلي: ٦٦.
(٢) ديوان ابن شهيد: ٩٣.
(٣) ينظر: الصّورة البدوية في الشّعر العباسي: ٣٦٣.
(٤) هو علي بن محمد بن علي بن الحسن، درس بقرطبة، كان أديباً بليغاً، عالماً حافظاً ذاكراً للآداب. ينظر: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، للضبي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري اللبناني، ط١، ١٩٨٩م: ٢/ ٥٤١.
(٥) التّشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ١٤٣.

يشبّهُ الشّاعرُ مشيةَ الحبيبةِ في تمايُلِها وتثنّيهَا بحركةِ السّحابِ البطيءِ تارّةً، وبمشيةِ السّكرانِ الَّذِي شَرِبَ كثيرًا حتّى صار يَتمايَلُ في سَيرِهِ مثلَ غُصنٍ تَميدُ به الرّياحُ تارّةً أخرى.

لقد سار الشُّعراءُ الأندلسيّون على خطى من سَبَقَهُم في وصفِ مشيةِ المرأةِ بالتّمهُّلِ والسّكونِ والبطءِ؛ لكونِهم ينشُدُونَ هذه القيمَ الجماليّةَ، بل يرغبُونَ وجودَهَا في معشوقاتِهم[1]. وفي ذلك يقولُ ابنُ حزمٍ الأندلسيِّ[2]:

كأنّها حينَ تَخطُو في تأوُّدِهَا ... قضيبُ نرجسةٍ في الرَّوضِ ميَّاسِ
كأنَّمَا خلدُها في قلبِ عاشقِها ... ففِيهِ مِن وَقعِها خَطَرٌ ووسواسُ
كأنَّمَا مَشْيُها مشيُ الحمامة لا ... كدٌّ يُعابُ ولا بطءٌ بهِ باسُ

يشيرُ الشّاعرُ –هنا– إلى المرأة الآسرةِ الألبابَ في وقعِ خطواتِهَا، فهي تمشِي وتتمايلُ من دونِ إسرافٍ أو بطءٍ يشينُ تهادِي خطواتِها، أو يعكّرُ صفوَ وقعِ أنغامِ مشيِها على قلبِ من يسمعُهَا أو يرَاهَا، فمثَلُها مَثَلُ الحمامةِ خفّةً، وغصن النّرجس في الرّوض حين تتهادَى وحينَ تحركُّها أنسامُ الرّبيعِ[3].

ومن –هنا– نرى اتّفاق الشّعراء الأندلسيّين على وصف مشية المرأة بالسّكون والهدوء والفتور، ففي ذلك دلالة نفسيّة؛ إذ إنّ «البطءَ في المشيِ والتّثاقلَ في الحركةِ يدلّانِ على ميلِ النّساءِ إلى عدمِ العنفِ، كما يميلُ الرّجال –بعامةٍ– إلى الأعمال العضليّةِ العنيفةِ، وهذا يرجعُ إلى تركيبِ أبدانِهنَّ، فقد أُلِفْنَ أن يَقَرْنَ في بيوتِهنّ ويُقمنَ بمداراةِ الأطفالِ وتربيتِهم»[4]، ولهدوء المرأة وبطء حركتها دلالةٌ اجتماعيّةٌ؛ لكونها منعّمةً

(١) ينظر: بحوث نقدية في شعر الأندلسيين: ٧٧.
(٢) ديوان ابن حزم: ٩٠.
(٣) ينظر: بحوث نقدية في شعر الأندلسيين: ٧٦.
(٤) المرأة في الشّعر الجاهلي: ٩٧.

مخدومةً لا يكلّفُها أهلُها عملاً في البيت، ولا تُعانِي من متاعبِ الحياةِ، على نحوا حال المرأة في المشرق العربي[١].

من هنا يتبيَّنُ أنّ الحياءَ والتّدلّلَ فنٌّ برعَتْ فيهِ النّساءُ الأندلسيّاتُ بوصفِهِ سمةً من سماتِ الجمالِ المثاليِّ الَّتِي طالما حلُمَ بها العديدُ من الشُّعراءِ الأندلسيّين، بل وازدادوا تعلّقاً بها.

العفة:

قيمةٌ أخلاقيّةٌ ذاتيّةٌ صادقةٌ، يترفّعُ فيها الشّاعرُ عن المعاني المبتذلةِ، والألفاظِ المُخجلةِ، فغريزةُ المرءِ لذةٌ طارئةٌ ورغبةٌ جانحةٌ لا تصلُ إلى خفايا النّفس، ولا تثبتْ على حال[٢]؛ لذا عُدَّتْ هذه القيمة من أبرز المظاهر الاجتماعيّة الدّالّة على احترام الرّجلِ المرأةَ، ولا سيّما في القصائد الَّتِي تكرَّرتْ فيها «فكرة الانتصار على دواعي الشّهوة...، وانتصار عوامل التّقوى ورجحانها على الفجور في اتصالاتهم»[٣]، العاطفية، ولا يُغفل أثر الإسلام في ظهور هذه القيمة السامية الَّتِي خلقتْ «إدراكاً جديداً للعاطفة، فيما دعا إليه من جهاد النّفس، ومقاومة الهوى، وفيما هيأ لروح الزّهد بتهوينه من شأن الدّنيا، وتهويله لعذاب الآخرة»[٤]، فالعفاف طبع متأصل في نفوس الشّعراء ذلك ما نجده عند الشّاعر أحمد بن فرج الجيانيّ، قائلاً[٥]:

وطائعةُ الوصالِ عدوتُ عنها وما الشّيطانُ فيها بالمطاعِ

(١) ينظر: الصّورة البدوية في الشّعر العباسي: ٣٦٤.

(٢) ينظر: اتجاهات الغزل في القرن الثّاني الهجري، يوسف حسين بكار، دار المعارف، مصر، ١٩٧١: ١١١.

(٣) الاتجاه الإسلامي في عصر ملوك الطّوائف والمرابطين، د. منجد مصطفى بهجت، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦: ٥٢١.

(٤) النّقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، (د. ت): ٢٠٠.

(٥) أحمد بن فرج الجياني (ت٣٦٦هـ)، نزهة جعفر حسن، مجلة آداب المستنصرية، العدد ١٦، ١٩٨٦: ٢٢٤-٢٢٥.

بدتْ في الليلِ سافرةً فباتتْ ... دياجي الليلِ سافرةَ القناعِ
وما من لحظةٍ إلاَّ وفيها ... إلى فتنِ القلوب لها دواعي
تملَّكتِ النُّهى جمحات شوقي ... لأجري في العفافِ على طباعي
وبتُّ بها مبيتَ السّقب(*) يظمأ ... فيمنعُها الكعامُ(**) من الرّضاعِ
كذاك الرّوضُ ما فيه لمثلِي ... سوى نظرٍ وشمٍّ من متاع

ويؤكِّدُ الشّاعرُ في أبياتٍ أخرى أهمية هذه القيمة حينما تعدى به العفاف من اليقظة إلى الحلم والنّوم، فيقول[1]:

بايِّهَا أنَا في الحُبِّ بادِي ... بشُكرِ الطّيفِ أم شكرِ الرّقادِ؟
سَرَى، وأرادني أملي، ولكنْ ... عفَفْتُ، فلم أنلْ منه مُرادي
وما في النّومِ مِنْ حَرَجٍ، ولكنْ ... جريتُ مِنَ العفافِ على اعتقادي

«ويندرجُ ضمن هذا الاتجاه الَّذِي تُمثِّلُ فيه العفةُ مذهبًا أخلاقيًّا، أبيات الحصريّ الكفيف الَّذِي زجر نفسَهُ الأمَّارةَ بالسُّوءِ وترفَّعَ عن الفاحشةِ، وتحلّى بالوَقَار والعفّة خشيةً من المولى تعالى»[2]، فيقولُ مشيراً إلى ذلك[3]:

قالَتْ وهبتُكَ مُهجتي فخُذ ... ودع الفراشَ ونمْ على فخذي
وثنتْ إلى مثل الكَثيبِ يدي ... فأجبتُها نِعمَ الأريكة ذي
وهممتُ لكن قال لي أدبي ... بالله منْ شيطانِكَ أستَعذِ
قالت: عففتَ فعفت قلتُ لها: ... مذَ شبتُ باللّذَّاتِ لمْ أُلَذِ

(١) أحمد بن فرج الجياني: ٢٢١.
(٢) القيم الحضارية في الشعر الأندلسي: ١١١.
(٣) أبو الحسن الحصري القيرواني، عصره، حياته، رسائله....، محمد المرزوقي، والجيلاني بن الحاج يحيى، مطبعة المنار، تونس، ط١، ١٩٦٣: ١١٢.

وقد يتّخذ البعضُ من العفافِ رقيبًا حين يغلُو بمَنْ يُحبُّ، ذلك ما نراه عند أبي الوليد محمّد بن يحيى بن حزم، يقول[١]:

وكمْ ليلةٍ ظافرت في ظلّها المنى وفي ... وقد طَرفتْ من أعيُنِ الرُّقباءِ
ساعدي حُلو الشّمائل مترفٌ ... لعُوبٌ بيأسي تارةً ورجائي
أطارحُه حُلو العتاب وربَّما ... تغاضَبَ فاسترضيتُهُ ببكائي
وقد عابثتَهُ الرّاحُ حتى رمتْ به ... لقىً بين ثنيي بردتي ورِدائي
على حاجةٍ في النّفسِ لو شئت نلتها ... ولكن حمتني عفَّتي وحيائي

ولعلَّ الافتخارَ بالمعانِي العذريَّة المستوحاة من الشّعرِ العربيِّ القديمِ، كان من الخصائص المميّزة لقصيدةِ الغزلِ الأندلسيِّ، فهذا ابن زُمْرُك يستوحي أجواء البادية في إبراز معنى العفة والقناعة بالنّظر إلى المحبوبة، فيقول[٢]:

تقضَّيتُ منها فوقَ ما أحبُ المنى ... وبُردُ عَفَافِي صانَهُ الله من بردِ
وليس سوى لحظٍ خفيٍّ نجيلُه ... وشكوى كما ارفضَّ الجمانُ من العقدِ

وفي أبيات ابنِ زمرك تضمين من قول جميل بثينة[٣]:

وإنّي لأرضَى من بثينة باللّذِي ... لو أبصرهُ الواشي لقرَّتْ بلابلُهُ
بلا، وبأن لا استطيعَ وبالمنى ... وبالأملِ المرجوِّ قد خاب آملُهُ
وبالنّظرةِ العجلى وبالحولِ تنقضي ... أواخرهُ لا نلتقي وأوائلُهُ

(١) الذّخيرة: م٢ ق٢: ٦٠٣.

(٢) ديوان ابن زمرك، تحقيق: د. محمد توفيق النّيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧: ٣٨١.

(٣) ديوان جميل بثينة، تحقيق: عدنان درويش، دار الفكر العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠١: ٢٣٢.

وهكذا يفتخر الشّاعر الأندلسي بهذه القيمة، فقد «يصادف الإنسان بين ما أنشأ العرب من شعر الغزل أبياتًا تروعهُ منها حالة نفسيَّة غريبة من العفَّة، يعسُر تحديد ماهيَّتَها»[١].

وفي ذلك، يقول ابن خفاجة مفتخراً بهذه القيمة[٢]:

فإنني والعفافُ من شِيمي آبى الدّنَايَا وأعشقُ الحَسَنَا

ويقول كذلك لسانُ الدّينِ بن الخطيب[٣]:

تهُشَّ لنا البُدُورُ بكُلِّ خدرٍ وتهوانَا الشَّموسُ بكُلِّ كلّة
ويمرضُنا العفافُ فكم عليل وما غيرُ الهَوَى والكتم علَّة

ويربطُ ابنُ الخطيبِ معنى العفَّةِ بمعاني الحبِّ العذريِّ القديمِ، فيقولُ[٤]:

سقى اللهُ عهدَ القُربِ أفضلَ ما سقَى عهودَ الهَوَى العذريِّ من صوبِ عهدهِ

وفيها يقول[٥]:

فبايعتُ سُلطانَ العفافِ ولم أجزِّ على فكرتي إلاّ الوفاء بعهدهِ

(١) الشّعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، إميليو غارثيا غومث، تحقيق: حسين مؤنس، دار الرّشاد، القاهرة، (د. ت): ٥٩.

(٢) ديوان ابن خفاجة، تحقيق: د. السّيد غازي، دار المعارف، مصر– الاسكندرية، ١٩٦٠: ٢٢٢.

(٣) ديوان لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق: د. محمد مفتاح، دار الثّقافة، المغرب– الدّار البيضاء، ط١، ١٩٨٩: ٢/ ٥٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٢٨٦.

(٥) المصدر نفسه: ١/ ٢٨٧.

ومن الجديرِ بالذّكرِ «أنَّ المتعةَ الحقيقيّةَ الوحيدةَ الَّتِي يبحثون عنها هي التّمتُّع بحضور المحبوب، وهذه العفَّة وهي الملمح الوحيد على احترام الرّجل المرأة الَّتِي يفكّر فيها، نجدها موقفاً طبيعيا عند بعض شعرائنا الأندلسيّين»[١].

وفي ذلك يقول ابن زُمْرُك[٢]:

خلوتُ بمن أهواهُ من غير رقبةٍ ولكنَّ عفافي لم أكن عنه خائفُ

وهي قصيدة يشير فيها إلى الهوى العذريّ[٣]:

واذكرني ثغراً ظمنتُ لوردهِ ولا والهوى العذريّ ما كنتُ ناسيا

«ويمضي الشّاعرُ الأندلسيُّ مؤكِّدًا معنى العفَّة حين يذكر أنّه رجع عن وصال المحبوبة عفَّةً وحياءً، لا خوفًا من أهلها الحريصين عليها، وفيه معنى الرِّعاية والخوف على المرأة وحمايتها»[٤]، إذ يقول ابن الأبَّار[٥]:

إذا زُرتُها لاقيتُ حجباً من القَنَا وبيضَ الظّبي تحمي البراقع والحُجْبَا
فأرجعُ أدراجي ولو شئتُ خاضَ بيِّ لقُبَّتها طِرفي جَنَابَتِها القَبَّا
وما ذاك جُبنًا بل حياءً وعفَّةً من الحيَّ أن يدروا بمن شَفَّني حُبَّاً

وفي وصفٍ لمغالبةِ النّفس هواها يقول ابن سهل الأندلسيّ[٦]:

عزم الغرامُ عليَّ في تقبيلهِ فجعلتُ أبدي الطّوعَ عن عزماتهِ

---

(١) الشّعر الأندلسي في عصر الطّوائف، هنري بيريس، ص٣٧٠.
(٢) ديوان ابن زمرك، ص٥٢٠.
(٣) المَصدَرُ نَفسُهُ.
(٤) الاتجاه البدوي في الشّعر الأندلسي، د. فوزية عبد الله العقيلي، القاهرة، دار الكتب، ط١، ٢٠١٢: ١١٥.
(٥) ديوان ابن الأبار، ص٦٨.
(٦) ديوان ابن سهل، ص٣٤٩، وقد ذكر المحقق، الدّكتور احسان عباس أن الأبيات نُسبت أيضاً إلى أبي بحر صفوان بن إدريس.

وأبر عفافي أن أقبِّل ثغرهُ والقلبُ مطويٌّ على جمراتهِ
فأعجب لملتهبِ الجوانحِ غِلَّةٌ يشكُو الظَّما والماءُ في لهواتهِ

من هنا نلمسُ «إظهار الصّبابة والصّدق فيها مع العفّة الَّتِي تذود الرّغباتِ ولا تزعمُ أنَّها تتسامى فوقها، ومن أجل هذا نجد اللوعة عندهم أقوى وأحرّ»[1].

إنَّ هذه القصائد ذات الاتجاه البدوي هي الَّتِي فرضتْ على شعراء الغزل الأندلسيّ وازع المروءةِ والأمانةِ، والصّونِ، والعفافِ، والعفةُ سمةٌ أخلاقيّةٌ وشيمةٌ عذريّةٌ وطبعٌ متأصِّلٌ في نفوسِ شعراءِ الغزلِ الأندلسيِّ.

الهجر:

قيمةٌ انسانيّةٌ ذاتيّةٌ صادقةٌ تعبِّرُ عن حالةِ الحزنِ والألمِ المهيمنةِ على نفسيّةِ الذّاتِ الشّاعرةِ المنطلقة من حالِ التّفاعلِ بين الحبيبِ وحبيبتِهِ فالحُبُّ قيمةٌ أصيلةٌ «تدخلُ في تكوينِ نسيجِ الوجودِ البشريّ، إن لم نقل بأنّه القيمةُ الكُبرَى الَّتِي تخلعُ على الحياة البشريّةِ جانبًا غير قليلٍ من دلالتِها، ولو قُدِّرَ للبشريّة – يوماً – أن تفنى أو أن تنحدر إلى هاوية العدم، فلن يكون معنى ذلك سوى أن الكراهية قد استبدت بعقول البشر وأفئدتهم فحلت عندهم محل المحبة»[2].

ولعلّ من معالمِ هذهِ العاطفةِ الصّادقةِ أن يُكثرَ الشُّعراءُ من الشّكوى: شكوى الفراقِ والبعدِ عن المحبوبةِ، والشّكوى من الصّدِّ والهجرِ، والرّحيلِ، فالحزنُ والألمُ من توابع الهوى وزوابعه، الَّتِي عصفت وزلزلت كيان الشّاعر المحب العاشق[3].

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب، عبد الله الطّيب، ٣/ ١٨١.
(٢) مشكلة الحياة، د. زكريا إبراهيم، القاهرة، دار مصر للطباعة، (د. ت): ١٣٠.
(٣) ينظر: الاتجاه البدوي في الشّعر الأندلسي: ١٣١.

فالهجرُ كما يقولُ ابن حزم هو الَّذِي «خلى العقول ذواهل، فمن دهي بهذه الدّاهية فليتصدَّ لمحبوب محبوبه، ما يعرف أنه يستحسنه»[(١)]، فهذا ابن زيدون يصف قساوة الهجر ولوعته، قائلاً[(٢)]:

وما كنتُ إذ ملكتكِ القلب عالماً بأنِّي عن حتفي بكفِّي باحث
فديتُك إنّ الشّوق لي مُذْ هجرتني مميت فهل لي من وصالك باعثْ

«لقد عادل الشّعُراء بين مرارة الفقد والهجر ووقع الموت، لأنّهم احسوا في فقد من يحبّون فقداً للنّفس الَّتِي هويت وعشقت، وربطت حياتها بوجود هذه المحبوبة، حتى اذا غابت أو هجرت، استشعر الشّاعر وحشة الكون من بعدها، فندب نفسه، وشكى مرارة الهجر ولوعته»[(٣)].

وقد ذكر ابن زيدون هذا المعنى بطريقة استفهاميّة عبر من خلالها عن عظيم حبِّه وشدّةِ وجده بالمحبوبة متسائلاً[(٤)]:

أأجفى بلا جُرمٍ وأقصى بلا ذنبِ سِوى أنّني مخضُ الهَوَى صادقُ الحبِّ
أغاديك بالشّكوى فأضحَى على القَلى وأرجوك للعتبى فأظفر بالعتبِ

ولقسوة ولوعة الفراق أكثر شعراء الغزل من التذلل والاسترحام من المحبّين، وفي ذلك يقول ابن فركون[(٥)]:

ألا عَطْفَةٌ بعدَ التّباعُدِ والنّوى ألا عِدَةٌ بالوَصْلِ يوماً بلا مَطْلِ

(١) طوق الحمامة: ٨٣.
(٢) ديوان ابن زيدون: ١٨٤.
(٣) الاتجاه البدوي في الشّعر الأندلسي: ١٣٥.
(٤) ديوان ابن زيدون: ١٨٢.
(٥) ديوان ابن فركون، ص٢٦٥.

إنّ العشقَ والغرامَ وشدَّةَ الوجدِ يورثُ الذّلَّ والهمَّ والجنونَ، "فقد روي عن الأصمعيِّ يقولُ: لقد أكثر النّاس في العشقِ، فما سمعت أوجزّ ولا أجمل من قول بعض نساءِ العربِ وسئلت عن العشق؟ فقالت: ذلَّ وجنون"[1] يقولُ ابنُ الأبار[2]:

جفونُ هَمتَ مذغابّ عنها حبيُها ونفس بها للشّوق نارَّ تذيبها
تيقْنتُ إذ ودَّعتها أنّ مهجتِي سيقضي عليها شوقُها ونحيبها
شققت جيوبي يوم بانت وطالما أطال عذابي ما طوته جيوبها
وللحبِّ حالات تمرُّ خطُوبُهَا إذا قُرنتْ بالبين تحلُو خطوبُها

إنَّ «الحبَّ يسمُو بصاحبِهِ، ويرتفِعُ بالعاشِقِ مراتب في الإنسانيـّة، تجعل قلبه أرقّ، وروحه أكثر شفافيـّة، ولذا كان وقع الألم على هذه النّفس الجياشة بالعواطف أشد منه على غيرها، وبخاصة إذا كان العذاب ممّن يُحبُّ»[3].

وفي هذا المعنى يقول ابن زيدون[4]:

ساحبُّ أعدائي لأنّك منهُمُ يا مَن يُصحُّ بمقلتيْهِ ويُسقِمُ
أصبَحتَ تسخطُني فأمنحُك الرّضا محضاً وتظلِمُني فلا تظلّمُ
يا مَن تآلف ليلُهُ ونهارُهُ فالحُسنُ بينَهما مضيءٌ مظلمُ
قد كان في شكوى الصّبابةِ راحةٌ لو أنّني أشكو إلى مَن يَرحَمُ

(١) ذم الهوى، ابن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مراجعة: محمد الغزالي، القاهرة، دار الكتب الإسلامية، ط١، ١٩٦٢: ٢٩٢.
(٢) ديوان ابن الآبار: ٣٤٨.
(٣) الاتجاه البدوي: ١٣٢.
(٤) ديوان ابن زيدون: ١٨١.

ويقارن ابنُ حمديس بين مرارة العشق والغرام، ونظيرها لدى مَنْ يحب، فيقول[١]:

شكوت إليها لوعة الحب فانثنت تقول لتربيها وما لوعةُ الحبِّ
فقيل عذابٌ لو احطتِ بعلمه لَجُدت على الصَّادي بماء اللّمى العذبِ

وهي مقاربة في المعنى من قول المجنون[٢]:

احبك يا ليلى محُبة عاشق عليه جميع المصعبات تهون
احبك حباً لو تحبين مثلهُ أصابك من وجد عليْ جنون

ويقول ابن داود في الهجر: "بعد القلوب على المزار أشد من بُعد الدّيار من الدّيار"، والهجر من أشد أنواع العذاب لدى المحبين والَّذِي يخص الغزل هو "هجر الدّلال، وهجر الغض المتمكن في القلوب"[٣].

"وقد فجرت الالام في الشعراء مشاعرهم واحاسيسهم فاستغلوها في قصائدهم طاقة تعبيرية للالفاظ والتراكيب... وفي اطار هذه الرؤية ظل الشعر معانقا لفكرة الالم معانقة تفجر الحياة، وتثير الرؤى الغريبة، وتدرك الحواس، وتوقظ كثيرا من الافكار والمدركات الحسية والعواطف لدى الانسان، فالشاعر هو في الحقيقة صدى لصوت الناس وممثل لتجاربهم"[٤]:

وفي هذا المعنى يقول ابن عبد ربه[٥]:

انت دائي وفي يديك دوائي يا شفائي من الجوى وبلائي
ان قلبي يحب من لا أسمي في عناء اعظم به من عناء

(١) ديوان ابن حمديس: ١٨.
(٢) ديوان مجنون ليلى: ٢٢٤.
(٣) كتاب الزّهرة: ١/ ١٣٦.
(٤) الحنين والالم في الشعر الاندلسي، د.بسمه خليفة، بيروت، دار النهضة العربية، ط١، ٢٠١١ م: ٣٢٦.
(٥) ديوان ابن عبد ربه: ٤٢-٤٣

كيف لا، كيف ان الذ بعيش ... مات صبري به ومات عزائي
أيها اللائمون ماذا عليكم ... ان تعيشوا وان اموات بدائي
ليس من مات فاستراح بميت ... انما الميت ميت الاحياء

وفي معنى كتمان السّر يشير ابن حزم إلى تجربته المريرة في الحب قائلاً[1]:

دموعُ الصّبِّ تنسفكُ ... وسترُ الصّبِّ ينهتكُ
كأنَّ القلبَ إذ يبدُو ... قطاةٌ ضمَّها شركُ
فيا أصحابَنَا قُولُوا ... فإنَّ الرّأي مشتركُ
إلى كم ذا أكاتمُهُ ... ومالي عندهُ متركُ

يتّضح لنا ممّا سبق أنّ الهجر والألم سمة معنوية تغنى بها شعراء الغزل الأندلسيّ مبعثها صدق التجربة الشّعريّة والعواطف الإنسانيّة، فاضحى الالم ترجمانا لحالة الشاعر النفسية جراء ما تعرض له من حالات الفقد والهجر مما اضفى على اشعارهم هالة من السمو والرقي ولا سيما في المبنى والمعنى الشعري.

الوصال:

قيمةٌ إنسانيةٌ رفيعةٌ، تتجلّى فيها روعةُ الحبِّ، وما فيه من مناجاةٍ، ولهفةٍ وتذكُّر، وشوقٍ وحنينٍ، فالحبُّ داءٌ والوصالُ دواءهُ، وفي ذلك يقولُ ابن حزم: "ومن وجوه العشق الوصل، وهو خط رفيع ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة، والعيش السّنيّ، والسّرور الدّائم، ورحمة من الله عظيمة"[2].

(١) طوق الحمامة: ١٠١
(٢) المصدر نفسة: ١٣٥

من هذا المنطلق عبَّر الشّعراء الأندلسيّون عن مضامين تجاربهم العاطفية المليئة بمعاني الوصل والحبّ والشّوق، فـ"للحبّ حكماً على النُّفوس ماضياً، وسُلطاناً قاضياً، وطاعة لا تصرف، ونفاذاً لا يرد"[١].

لذا عدَّ الوصل من أبرز القيم الَّتِي طرقها الشّعراء الأندلسيّون ذلك ما نجده عند ابن حزم الأندلسيّ حينما جسد معاني الوصال عبر زيارة المحبّ للحبيبة، قائلاً:[٢]

أسامرُ البَدْرَ لمّا أبطأتْ وَأَرى في نَورِهِ من سَنا إشراقها عَرَضا
فَبِتُّ مُشتَرِطاً والوُدّ مُختلطاً والوَصلُ مُنبسطاً والهَجْرُ مُنْقبض عِرضَا

ومنه يقول[٣]:

إنّ للوَصْلِ الخفيّ محلاً ليْسَ للوَصْلِ المَكينِ الجليِّ
لَذةً أمرُها بِارْتقابٍ كَمسيرٍ في خِلالِ النّقيِّ

إنَّ مظهر الحبّ والشّعر قد اجتمعا وتصارعا وتساجلا في نفس الشّاعر العاشق، فانتصر مظهر العاشقين وتصرفهم على رقة الشّعراء ورهافة حسهم وتفننهم الشّعري[٤].

فهذا ابن زيدون يؤكّد من مطلع غزليّ من قصيدة يعاتب فيها المحبوبة الهجر مذكراً بما كان من أيامِ وصاله وشوقه، فيقول واصفاً الهجر بالدّاءِ، والوصال بالطّبيب[٥].

ما بالُ خَدَّك لا يَزالُ مُضَرَّجاً بدَمٍ وَلَحظُكِ لا يَزالُ مُريبا

(١) ينظر: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، يوسف حسين بكار، مصر، دار المعارف، ١٩٧١: ٦٦
(٢) طوق الحمامة: ٨٥
(٣) المصدر نفسه: ٩٠
(٤) ينظر الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه: مصطفى الشكعة، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٧٩م: ٢٢٣.
(٥) ديوان ابن زيدون: ٣٢٥

لَو شِئتِ ما عَذَّبتِ مُهجَةَ عاشِقٍ مُستَعذِبٍ في حُبِّكِ التَّعذيبا
وَلَزُرتِهِ بَل عُدتِهِ إنَّ الهَوى مَرَضٌ يَكونُ لَهُ الوِصالُ طَبيبا
ما الهَجرُ إلا البَينُ لَولا أَنَّهُ لَم يَشحُ فاهُ بِهِ الغُرَابُ نَعيبا

وإلى جانب ذلك، نجدُ إنَّ الشّعراء الأندلسيّون قد وقفوا على العديد من معاني الوصل، ولا سيما في مراسلاتهم الشّعرية معبرين في ذلك عن تجاربهم الخاصة باثّين فيها لواعج حبّهم وشوقهم لمن يحبون.

هذا ما تؤكّده حفصة بنت الحاج في مراسلاتها مع جعفر ابن سعيد، فتقول[1]:

زائرٌ قد أتى يجيد غزال طامع من مُحبه بالوصال
أتراكم بإذْنكم مُسْعِفيه أم لكم شاغلُ من الأشغال

فلما وصلت الرّقعة إليه، قال ورب الكعبة، ما صاحبُ هذه الرّقعة إلاّ الرَّقيعة حفصة؛ ثم طلبت فلم تُوجد، فكتب إليها راغباً في الوصال والأنسِ الموصول:

أيْ شُغْلٍ عن الحبيبِ يعُوقُ يا صاحباً قد آن منه الشّروق
صِل وواصلْ فأنْتَ أشهى إلينَا من جميع المنى فكم ذا تَشُوق
بحياةِ الرِّضَى يَطِيبُ صَبوحُ عَرْفاً إن جَفَوْتَنا أو غُبُوق
لا وَذُلِّ الهوى وعزِّ التّلاقي واجتماع إليه عَزّ الطّريق

ويظفر ابن عبد ربه بالوصل قانعاً بزياره طيف الحبيبة جاعلاً من يده وسادة لها فيحل خيال الحبيبة محل اللقاء الحقيقي، فيقول[2]:

سَرى طَيْفُ الحبيبِ على البعادِ لِيُصْلِحَ بَيْنَ عَيْني والرُّقادِ
فَباتَ إلى الصّباحِ يَدي وسادٌ لِوَجْنَته كما يَدُهُ وسادي

(١) الاحاطة في اخبار غرناطة: ١/ ٤٩٣
(٢) شعر أبي جعفر بن سعيد، تحقيق د. احمد حاجم مجلة المورد، ع١، م٢١، ١٩٩٣ م: ١٣٧

بنَفْسي مَنْ أعادَ إليَّ نفْسي وَرَدَّ إلى جَوانِحِهِ فُؤادي
خَيالٌ زارني لَمَّا رآني عَدَتْني عَنْ زيارَتهِ عَوَادي
يُواصلني على الهِجْرَانِ مِنْهُ وَيُدْنيني على طول البعادِ

واذا كان الشعراء يكثرون من تمني زيارة الطيف ليكون عوضاً عن اللقاء الحقيقي، فان ابن حزم لا يكتفِ بذلك، بل يتمنى زيارة طيف المحبوبة حتى بعد الموت، فيقول[١]:

أتى طيفُ نُعْمٍ مَضجعي بعد هدأة وللليلِ سلطانٌ وظلّ ممددُ
وعهدي بها تحت التّراب مقيمةٌ وجاءت كما قد كنتُ من قبل أعهدُ
فعُدنا كما كنا وعاد زمانُنا كما قد عهدنا قبل والعودُ أحمد

إنَّ الشّاعرَ بذكره الخيال أو الطّيف يريد أن يبقى متّصلاً مع الحبيب حتّى في حال الهجر أو الموت، فإنَّ جمال المرأة المحبوبة وحسنها لا يفارقه، فهي معه في حلّه وترحاله، إذ يثبت من هذا الخيال مدى تعلُّق قلبه بالمحبوبة وبجمالها الَّتِي تظلُّ معه في كلِّ حين، فالرّمادي يذكر زيارة خيال محبوبته على الرّغم من أنّها قد نكثت عهدها ولم تعد تصله،الا ان طيفها بات ملازماً له[٢]، فيقول[٣]:

خَيالٌ لِمَن حالَ عَن عَهدِهِ أتاني وَما كُنتُ في وَعدِهِ
تَمادى إلى الوَصلِ حَتّى أتى الصَّباحُ فَعادَ إلى ضِدُه
كَأَني قَد بتُّ في شعرهِ الـ ـأَحَمُّ وَأَصبحتُ في خَدُهِ

(١) ديوان ابن عبد ربه: ٥٧
(٢) ديوان ابن حزم: ٥٢
(٣) القيم الجمالية في الشعر الاندلسي، د. ازاد محمد كريم، عمان، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م: ١١٠.

التّذلل:

قيمةٌ وجدانيّةٌ أصيلةٌ مبعثُها عمقُ المحبّةِ، وغلبةُ العشقِ، فالخُضُوعُ والتّذلُّلُ للمحبوبةِ حقيقةٌ واقعةٌ، عاشَها شعراءُ الغزلِ الأندلسيِّ، إذ لم يكن ذلك الاتجاهُ من باب الخيالِ الشّعريِّ أو التّصنُّعِ اللّفظيِّ، بل كان تلذّذًا باستشعارِ الألمِ، فرِقُّ الهوى والعبوديّة الَّتِي يخضع لها المحبُّ الحُرُّ قوةٌ قادرةٌ على كلِّ شيءٍ، وليستْ ذلّة وخضوعا[1]. يقولُ الشّاعرُ ابن الفرضي معبراً عن شدة وجدهِ وتذللهِ بأبياتٍ غلب عليها الإحساس الصّادق اتجاه مَنْ يحبُّ[2]:

إنَّ الّذِي أَصبحتُ طَوَعَ يمينهِ أَنْ لم يكنْ قمراً فليس بدونهِ
ذلي له في الحبِّ من سلطانهِ وسقام جسمي من سقامِ جفونهِ

لقد قابل الشّاعر بين سقام جسمهِ وسقام عيون الحبيبة في صورةٍ شعريّةٍ عمل الخيال الابتكاريّ على إبرازها وتصويرها متّخذاً من حسن التّعليل أَداةً له.

إنَّ الألم والتّذلّل يشرفان المحبّ العاشق بل ويرفعانِ من قدرهِ[3]، فهذا صاحبُ كتاب الزّهرة، يقول في الصّبرِ والتّذلُّلِ «الحازم مَنْ صَبَرَ على مضاضةِ التّذلُّل والتمسَ العزَّ في استشعار الذّلِّ»[4].

(١) شعر الرمادي: ٦٧.

(٢) ينظر: الشعر الاندلسي في عصر الطوائف، هنري بيرس، ترجمة د. الطاهر احمد مكي، مصر، دار المعارف، ط١، ١٩٨٨ م: ٣٧٣.

(٣) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة: ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق احسان عباس، بيروت، مطبعة دار الثقافة، ١٩٧٨ م: ق١، م٢/ ١٣١.

(٤) الشعر الاندلسي في عصر الطوائف، ٣٧٣.

–من هنا– يمكنُ القولُ إنَّ الخضوعَ والتّذلُّلَ للمحبُوبةِ من شيم المُحبِّ الصّادِقِ، وفي ذلك يقول ابن الحدّاد[١]:

لقد سامني هُوْناً وخَسْفاً هواكُمُ ولا غِرو عِزٌّ الصّبِّ أنْ يتعبدا

وقريبٌ من هذه المعاني، يأبى ابن حزم التّسلي والبعد عن الحبيبة مصراً على وصالها، فيقول مستلذاً[٢].

وأَسْتلذّ بَلائِي فيكَ يا أَمَلِي ولَسْتُ عنكَ مَدَى الأَيَّامِ أنْصَرِفَ
إنْ قيلَ لي أَتسَلَّى عَنْ مَوَدَّتِهِ فَمَا جَوَابيَ إلاَّ اللامُ والأَلِفُ

ويقرن ابن حمديس في قصيدة عينية العَزَّ بالخضوع فيقول باكياً[٣]:

أبكيتنِي فأَذعْتُ سِرَّكَ مُكْرَهاً فَعَلام تَعْذلّني وأنت تُذيعُهُ؟
قال العذولُ: لقد خَضَعْتَ لِحُبِّهِ فأَجَبْتُهُ: عِزُّ المُحِبِّ خُضُوعُهُ

ويقول ابن اللبانة هائماً يحب مَنْ امرضته[٤]:

لا أرتجي أَنَّ أفيقَ من مَرَضِي مَنْ أمرَضَتْهُ العيونُ لم يُفِقِ

«إنَّ الحبَّ يمحو الفوارقَ الطّبقيةَ، ويرفع العامّة إلى مستوى الخاصّة، ويجعل من المحبِّ المغمور النّسب في مستوى نبل سيدة أفكاره»[٥].

(١) الزهرة: ابو بكر محمد بن داود الاصفهاني، تحقيق ابراهيم السامرائي، الاردن الزرقاء، مكتبة المنارة، ١٩٨٥: ١/ ١٠٠

(٢) ديوان ابن حداد: ١٩١

(٣) ديوان ابن حزم: ١٠٥

(٤) ديوان حمديس: ٣١٤

(٥) شعر ابن اللباني الداني: ٩٦

ويتّفق ابن عمار مع ابن زيدون في اَستشعار عظمة هذا الحبّ، فيقول[1]:

جاهُ الهوى – فأَستشعروه – عارُهُ ونعيمُه – ما ستعذبوه – أَوارُهُ
لا تطلبوا في الحبِّ عزَّ إنّما عُبْدانُه في حُكْمِه أحرارُه

من هنا نجد أنّ التّذلُّلَ والخضوعَ للمحبوبِ هو من دلائِلِ الحُبِّ العذريِّ وسجايا المحبين الَّتِي رددها الأدلسيّون شعراء ملوك أو غير ملوك.

فهذا الحكم الرّبضي من أكثر ملوك الأندلس تذللًا وخضوعًا للحبيبة فيقول[2]

مَلكَاْنَي مِلْكَ مَنْ دلّتْ عَزِيمتُهُ للحُبَّ دُلَّ أسيرٍ مُوثقٍ عَانِ
مَنْ لِي بمُغتصِبَاتِ الرّوحِ من بَدَنِي غَصَبْنني في الهوى عِزِّي وَسُلطانِي

ويقول سليمان بن الحكم المستعين متذللاً[3]:

لا تعذِلوا مَلِكَاً تذلّلَ للهَوَى ذُلّ الهَوَى عِزٌّ، وَمُلك ثانٍ
ما ضَرَّ أَنَّي عَبْدُهُنَّ صَبَابَةً وَبَنُو الزَّمَانِ، وَهُنَّ من عُبْدَانِي

إنَّ «تصريحَ السّلطويين بخضوعِهم للأحبَّةِ له أكثر من دلالةٍ، منها أنَّ السّلطويّ له عواطف ترقُّ، وتكابد الحبَّ، ولعلّ أبرزَ الدّلالات أنَّ النّخبويّ اعتاد سماع التّعظيم لسلطانِهِ، وازدحمت في نفسه المدائحُ المشتملةُ على شتّى صنوف التّذلّل وربما الامتنان فأومى خضوعه في الشّعر إلى حاجة نفسية لكسر النّمطية في ذاته، فكان موضوع الغزل مؤمله في الخروج من رتابة ذلك الشّعور»[4].

(١) الشعر الاندلسي في عصر الطوائف: ٣٧٣
(٢) ديوان ابن عمار: ٢١٠
(٣) البيان المغرب: ٢/ ٧٩، الحلة السيراء، ٢/ ٩
(٤) جذوة المقتبس ١/ ٥٢

ويشير المعتضد إلى الحبّ وسلطانه، فيقول خاضعاً[١]:

لله درُّ الحُبَّ ماذا يَصْنَعُ؟ يَعّنو لَهُ مَلِكُ الزَّمَانِ ويخضعُ
للحُبِّ سُلطانٌ عظيم شَأْنُهُ مهما يَقُلُ قولاً فقلبي يَسْمَعُ
إنّ يغر بالهجرانِ مالِكُ مُهْجَتِي أقْبل إليهِ بِحَالتي أتَضَرَّعُ

وفي قصيدة اخرى اكد حسام الدولة عبد الملك بن رزين، خضوعه فيها للحبيبة، قائلاً[٢]:

ولأرضيَنّكَ إنْ سَخْطـ ـتَ بذِلّةِ الدَّنِفِ العَمِيدِ
ولأعْطفَنّكَ بالخُضُوُ ـعِ، وبالقنوعِ وبالسّجودِ

وفي المعنى نفسه يقول رفيع الدّولة أبو يحيى بن المعتصم بن صمادح[٣]:

وأهيف لا يلوي على عَتْبِ عَاتِبٍ ويقضي علينا بالطّنونِ الكَوَاذِبِ
يُحكّمُ فينا أمْرَهُ فنُطيعُهُ ويُحْسَبُ مِنهُ الحُكْمُ ضَرْبَةَ لازِبِ

ويقول من قصيدة أخرى يشير فيها إلى العفو عند المقدرة، حيث يصبح فيها هو المذنب، والحبيبة هي من تعفو عنه[٤]:

مالي وللبدرِ لم يَسْمَحْ بزَوْرَتِهِ لعلّهُ تَرَكَ الإجمالَ أو هَجَرَا
إنْ كان ذاك لِذَنْبٍ ما شَعَرْتُ بهِ فأكرمُ النّاسِ مَنْ يعفُو إذا قَدَرَا

(١) المركزي والمهمش في الشعر الاندلسي في عصري الطوائف والمرابطين، د. محمد العبيدي، عمان، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٨، ٣٢٠-٣٢١

(٢) شعر المعتضد بن عباد، تحقيق رضا السويسي، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٦: ٣٥٩.

(٣) الذخيرة، ق٣، مج١: ١١٧.

(٤) المصدر نفسه، الحلة السيراء، ٢/ ٩٣

الاعتذار:

أحدُ الفضائلِ المعنويّةِ المهمةِ الَّتِي اتّصفَ بها شعراءُ الغزل في الأندلس والَّتِي تتطلب التماس العذر من المرغوب في عفوهِ؛ لتقصِرٍ بدا منهُ أو ذنبٍ اقترِفَ بحقهِ فقد قيل قديماً "نعم البديل من الزّلةِ الاعتذار"(١).

ولما كان هدفُ هذا الاعتذار الحرصَ على آدامةِ الأفةِ والمحبَّةِ بين العاشق والمعشوقة في الأعمّ الأغلبِ فإنّه غالباً ما يكونُ مصحوبًا بلطافة التّعبيرِ وصدقِ العاطفةِ ونقاءِ السّريرةِ وصفاءِ الودِّ هذا ما أكّده ابنُ رشيق القيروانيّ بقوله: "وينبغي للشّاعر أن لا يقول شيئاً يحتاج أن يعتذر منه فإن أضطره المقدار إلى ذلك واوقعه فيه القضاء فليذهب مذهباً لطيفاً وليقصد مقصداً عجيباً وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر اليه وكيف يمسح اعطافه ويستجلب رضاه فإنّ إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدّليل خطاء"(٢).

إنَّ الاعتذار والإقرار بالذّنب من العوامل المهمة الَّتِي تقرب بين العاشق والمعشوق فـ«كثيراً ما يلتمس الشّاعر العاشق الأعذار لعثرات معشوقه، فيعتذر نيابةً عنه إن أذنب، هكذا هي عينُ المحبّ تبدي المحاسن، وتغضي عن المساوئ» يقول وفي ظل هذا المعنى، يعتذر ابن الابار عن ذنبٍ اذنبتُهُ الحبيب حينما اخلف الموعد غنجاً ودلالاً، فيقول(٣):

مَرْقوم الخدِّ مُوَرّدُه يَكْسُونِي السُّقمَ مُجَرَّدُهُ
أَسْتَنْجِزُ مَوْعِدَهُ فَيَرَى خُلْفاً أن يُنْجَزَ مَوْعِدُهُ

(١) المصدر نفسه: ٧٣٧.

(٢) العقد الفريد بن عبد ربه الاندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، ط٢، ١٩٠٣: ١/ ٢٩٤.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٤، ١٩٧٢: ٢/ ١٧٦.

وَأَقِيمُ العُذْرَ لِعُذّلِه في خَوْنِ العَهْدِ فيُقْعِدُهُ
كَمْ يَفرِدُني بِالذُّلّ هَوى صَلِفٍ بِالدَّلِّ تَفَرُّدُهُ

وقد يلتمسُ العاشقُ العذرَ لمحبوبتِهِ حينَما تتبخترُ غنجاً ودلالاً، وفي ذلك يقول ابن زيدون[1]:

من عذيري منهُ؟ أنْ أغبتُهُ نسيَ العهدَ وإن عاودتُ ملّ
قاتلٌ لي بالتّجنّي خالهُ ليت شعري أحلالٌ ما استحل؟
أيّها المختالُ في زينتِه انتَ أولى النّاس بالخال فَخَلْ
لكَ أنْ أدللْتَ عُذرٌ واضحٌ كلّ مَنْ ساعَفَهُ الحُسنُ أدَل

«وقد أطنب الأندلسيّون في الإشارة إلى أنّ ذنب المعشوق مهما عظم فإنّه مغفور إن أجاد الاعتذار عما جناه وتعددت صنوف الذّنوب الَّتِي يتوب منها المعشوق ومن أبرزها سفك دماء العشاق»[2].

يقول لسان الدّين بن الخطيب[3]:

سكَنَ الحُبُّ فؤادي وعَمَرْ ونَهَى الشّوْقُ بقَلْبي وأمَرْ
وغزَتْ قلْبي ألْحاظُ الظّبا بظُباها أيْنَ –يا قلْبُ– المَفَرْ؟
بأبي واللهّ لحْظٌ فاتِرٌ ما جَنى في مُهْجَةٍ إلا اعْتَذَرْ
مَنْ مُجيري مَنْ نَصيري في الهَوى؟ ضاعَ بيْنَ الغُنْجِ ثأري والحَوَرْ

(١) الاعتذار في الشعر الاندلسي (الرؤية والتشكيل)، د. وسام القباني، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١٤: ١٢٩.
(٢) ديوان ابن الابار: ١٦٤
(٣) ديوان ابن زيدون: ٣٣٩.

وفي السّياقِ نفسِهِ يقولُ عبدُ الكرِيمِ البسطيِّ القيسيّ[١]:

فَدَعِ الملامةَ في الهَوَى يا لائِمِي ... وإذا تَلُومُ فلا تَكُنْ مِكثارا
واعذُرْ مُحِبًّا في المحبَّةِ صادقًا ... فالحرُّ ملتمسٌ لهُ أعذارا
فالحبُّ ما يأتي اختيارًا للفتى ... فيودُّهُ سمةٌ له وشعارا
وإذا الهوى زار الجوائح مرَةْ ... فمن العوائد أن يزور مرارا

ويعتذر ابن الأبار عن كلّ أهل الهوى العذري، قائلاً[٢]:

هيهات أَعذَلُ في بيت الهوى نسبي ... ففيمَ يكثرُ لوَّامٌ وعُذَالُ؟
وكيف يوجدني السّلوانُ معذرةٌ ... وعذرةٌ لي أعمامٌ وأخوالُ؟

إن الاستسلام لرق الهوى والعبودية هو مقصد العشاق ومعتقدهم، وفي هذا المقام، يقولُ ابنُ حزم: «فلو شاهدت مقام المحل في اعتذاره، لعلمتُ أن الهوى سلطانٌ مطاع، وبناء مشدود الأواخي، وسنانٌ نافذ... وحضرتُ مقامَ المُعتذرين بين أيدي السّلاطين، ومواقف المُتهمين بعظيم الذّنوب مع المتمردين الطّاغين، فما رأيتُ أذلَّ من موقف محبٌ هيمان بين يدي محبوبٍ غضبان قد غمرهُ السّخط وغلب عليه الجفاء، ولقد امتحنتُ الأمرين، وكنتُ في الحالة الأولى أشدّ من الحديد، وأنفذ من السّيف، لا أجيبُ إلى الدّنيّة، ولا أساعدُ على الخضوع، وفي الثانية أذل من الرّداء، وألين من القطن، أبادرُ إلى أقصى غايات التّذلل لو نفع، واغتنم فرصة الخضوع لو نجع، وأتحلل بلساني، وأغوصُ على دقائق المعاني ببياني، وأفنّنُ القول فنوناً، وأتصدّى لكلّ ما يُوجب التّرضي»[٣].

(١) الاعتذار في الشعر الاندلسي: ١٣٠
(٢) ديوان لسان الدين ابن الخطيب: ١/ ٣٩٣
(٣) ديوان عبد الكريم القيسي: ٢٤-٢٥

وفي هذا السّياق، يقول ابن هانئ معتذراً[1]:

قولا لمعتقل الرّمح الرّدينيّ والمُرتدي بالرّداء الهندواني
ضع السّلاح فهل حدثت عن رشإٍ في مشرفيّ صقيلٍ أو رديني؟
ولستُ من ظلمهِ أخشى بوادره فرُب وترٍ لديهِ غير منسي
أهواهُ والصّعدةُ السّمراءُ تعذلُني والقلبُ يُدلي بعُذرٍ فيه عُذريّ

–من هنا– يتبين لنا أنّ الاعتذار قيمة حضاريّة أطنب الشّعراء الأندلسيّون في توضيح مضامينها وخصائصها ودوافعها في قصيدة الغزل الأندلسيّ الَّذِي تميز عن غيره بسهولة اللّفظ ولطافة المعنى.

الوفاء:

قيمة إنسانية نبيلة، فهي دليل الصدق، وطريق الاستقامة؛ لذا أضحتْ من أبرز معالم الغزل العذري، حيث يقول فيها ابن حزم «ومن حميد الغرائز، وكريم الشيم، وفاضل الأخلاق في الحب وغيره، الوفاء، وإنَّه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل، وشرف العنصر»[2].

إنَّ امتثال الشاعر الأندلسي لقيمة الوفاء كان له أثر واضح في إثبات نفي صفة الغدر نه عبر توظيفه لمعاني هذه القيمة في نصه الشعري، ذلك ما نجده عند الشاعر ابن زيدون، حيث يقول[3]:

لمْ نَعتقِدْ بَعدكُم إلاّ الوَفاءَ لَكُمْ رأياً، ولَمْ نتقلّدْ غَيرْهُ دِينَا

(١) ديوان ابن الابار: ٢٥٧
(٢) طوق الحمامة: ٨٠.
(٣) ديوان هانئ: ١٤٢.

ويقسم على ذلك، فيقول[١]:

لا تحسَبُوا نأيكُمْ عَنَّا يُغيِّرنا إنْ طَالَمَا غيَّرَ النَّأيَ المُحبِّينَا
والله مَا طَلَبَتْ أهوَاؤُنَا بَدَلاً مِنْكُمْ، ولا أنصْرَفَتْ عَنْكُم أمَانينَا

ويعبر ابن زمرك عن إخلاصه ووفائه في الهوى لمن أحب، فيقول[٢]:

شِيمَتي في الوَفَاءِ أَنْ لَسْتُ أرضَى في هَوَى من أَلِفْتُهُ بالبَدِيل
الله في حِفْظِ حبي لا تضّيعه فحفظه ليسَ لي في غَيْرِه أربُ
فقلتُ يا مُنْتَهى سُؤلي ويا أملي ومن رِضاها إليّ القصْدُ والطّلَبُ
ومن بخدّي منها الدَّمع مُنْهمر والنَّار في القَلْبِ والأحشاءِ تَلْتهبُ
الحبَّ أرعى لذاكَ الحُسْن ما بقيتْ روحي بجسمي مالي عنكَ منقلبُ

إنَّ الحفاظ على الود، والبقاء على العهد، من سجايا المحب المخلص، ومن شيم العاشق الصادق، وهي الشيم التي طالما تغنى بها الشعراء العذريون ورددها الأندلسيون، يقول ابن الخطيب[٣]:

ألم تعلموا أن الوفاء سجيتي إذا شحطت داري وشركاً بيروت،

وفي معنى أن الوفاء سجية وطبيعة في نفس المحب المخلص، يقول يوسف الثالث[٤]:

وفائي وودي ما علمت طبيعة فلا تخشين صدا ولا ترهبن بُعْدا

(١) ديوان ابن زيدون: ١٤٣.
(٢) ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٣٥١
(٣) ديوان عبد الكريم القيسي: ١١٣
(٤) ديوان لسان الدين بن الخطيب: ١/ ١٥٦.

ويقول أيضاً مادحاً نفسه بهذه الصفة، في زمن عزت فيه[1]:

فيا لك صبا ما أشذ وفاءه على من فيه الوفاء قليل

أما ابن زمرك يقول[2]:

أبتكم إلي على النأي حافظ ذمام الهوى لو تحفظون ذماما

-وخلاصة القول- إنَّ الوفاء قيمة إنسانية دأب شعراء الغزل في الأندلس على التمسك بها بحثاً عن المثالية في السلوك الإنساني عبر الابتعاد عن الغدر وبث روح الثقة والطمأنينة في نفوس المحبين؛ لذا حرص شعراء الغزل في الأندلس على الامتثال لهذه القيمة والتثقيف لها تثقيفاً اجتماعياً وفكرياً.

(١) ديوان يوسف الثالث: ٣٢.

(٢) ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٥١٥.

الخاتمة ونتائج البحث

اشتمل البحث الموسوم بـ(القيم المعنويّة في شعر الغزل الأندلسي) على محاولة لدراسة أثر هذه القيم في مجمل نتاج الغزل الأندلسي، وما يتبعه من هيمنة المفاهيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة على الحركة الشعريّة في الأندلس، وقد تمخّض البحث في هذا الموضوع عن نتائج مهمّة نوجزها بالآتي:

- توصّل البحث إلى أنّ صور العفّة والحياء قد تكرّرت عند شعراء الغزل الأندلسي، فقد استثمروا تجارب الحبّ العذريّ المستقاة من التراث العربي في توشيح قصائدهم الغزليّة.
- رصد البحث الثنائيّات المتضادّة في شعر الغزل الأندلسي، ولا سيما الوصل والهجر بوصفها مفاضلات تبيّن حال الشاعر في أثناء الحزن والفرح.
- أكّد البحث أنّ الحبّ لا يفرّق بين صاحب الجاه والسلطة، والآخر من عامّة الشعب، فكلاهما يتذلّل للمحبوبة، فالحبّ فوق المناصب والميول والاتّجاهات.
- أوضح البحث أنّ الوفاء والاعتذار مظاهر حضاريّة وجدانيّة، تنمّ عن عاطفة صادقة ترقّ لها الأفئدة، إذ مثّلت هذه القيم انفعالات النفس الإنسانيّة لشعراء الغزل الأندلسي تجاه من يحبّون.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أبو الحسن الحصري القيرواني، عصره، حياته، رسائله....، محمد المرزوقي، والجيلاني بن الحاج يحيى، مطبعة المنار، تونس، ط١، ١٩٦٣.
- الاتجاه الإسلامي في عصر ملوك الطّوائف والمرابطين، د. منجد مصطفى بهجت، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- الاتجاه البدوي في الشّعر الأندلسي، د. فوزية عبد الله العقيلي، القاهرة، دار الكتب، ط١، ٢٠١٢.
- اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، يوسف حسين بكار، مصر، دار المعارف، ١٩٧١.
- أحمد بن فرج الجياني (ت٣٦٦هـ)، نزهة جعفر حسن، مجلة آداب المستنصرية، العدد ١٦، ١٩٨٦.
- أخبار وتراجم أندلسية، السلفي (ت ٥٧٦هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٦٣م.
- الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه: مصطفى الشكعة، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٧٩م.
- الاعتذار في الشعر الاندلسي (الرؤية والتشكيل)، د. وسام القباني، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١٤.
- بحث في القيم، أروى بنت عبد الله بن محمد، جامعة الامام محمد بن سعود، كلية الشّريعة، ١٤٣٩هـ.
- تجليات الترف في بنية القصيدة الأندلسية (عصر ملوك الطّوائف)، أماني أحمد عبد طه، دمشق، الهيئة العامة السّورية للكتاب، ٢٠١٩م.

- الحنين والالم في الشعر الاندلسي، د.بسمه خليفة، بيروت، دار النهضة العربية، ط١ ٢٠١١ م.
- ديوان إبراهيم بن سهل الأشبيلي (ت ٦٤٣هـ)، حققه ورتبه: د. محمد فرج دغيم، ط١، بيروت، دار المغرب الإسلامي، ١٩٩٨م.
- ديوان ابن الأبّار القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ)، قراءة وتعليق: د. عبدالسلام الهرّاس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥م.
- ديوان ابن الخطيب السلماني (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق: د. محمد مفتاح، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٨٩م.
- ديوان ابن اللبانة الداني (ت ٥٠٧هـ)، جمع وتحقيق: د. محمد مجيد السعيد ط٢، عمان، دار الراية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.
- ديوان ابن حمديس (ت ٥٢٧هـ)، صححه وقدم له: د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠م.
- ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي (ت ٧٧٠هـ)، حققه وشرحه وقدم له: د. محمد رضوان الداية، ط١، بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٩٩٤م.
- ديوان أبن خفاجة (ت ٥٣٣هـ)، تحقيق سيد غازي، مصر، دار المعارف، ١٩٦٠م.
- ديوان ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)، جمعه ورتبه: د. عبدالرحمن ياغي، بيروت، دار الثقافة، (د.ت).
- ديوان ابن زمرك الأندلسي (ت بعد ٧٩٧هـ)، حقق الديوان وقدم له ووضع فهارسه: د. محمد توفيق النيفر، ط١، بيروت، دار المغرب الإسلامي، ١٩٩٧م.
- ديوان ابن زيدون ورسائله (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: علي عبدالعظيم، القاهرة دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٥٧م.

- ديوان ابن شهيد الأندلسي (ت ٤٢٦هـ)، جمعه وحققه: يعقوب زكي، القاهرة، دار الكاتب العربي أبن، (د.ت).
- ديوان ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)، جمعه وصحح نصوصه وقدم لقصائده وشرح معانيه: د. محمد رضوان الداية، ط٢، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٣م.
- ديوان ابن عمار (ت ٤٧٧هـ)، جمعه وضبط نصوصه: د. صلاح خالص، بغداد، مطبعة الهدى، ١٩٥٧م.
- ديوان ابن فركون، تقديم وتعليق محمد بن شريفة، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٧م.
- ديوان ابن هانئ الأندلسي (ت ٣٦٢هـ)، كرم البستاني، بيروت، دار صادر ١٩٦٤م.
- ديوان الأعمى التطيلي (ت ٥٢٥هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، (د.ت).
- ديوان جميل بثينة، تحقيق: عدنان درويش، دار الفكر العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠١.
- ديوان عبدالكريم القيسي الأندلسي، تحقيق: د. جمعة شيخة، د. محمد الهادي الطرابلسي، تونس، بيت الحكمة، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ١٩٨٨م.
- ديوان لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق: د. محمد مفتاح، دار الثّقافة، المغرب– الدّار البيضاء، ط١، ١٩٨٩.
- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث (ت ٨١٩هـ)، حققه وقدم له ووضع فهارسه: عبدالله كنون، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥م.
- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة: ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق احسان عباس، بيروت، مطبعة دار الثقافة، ١٩٧٨ م.

- ذم الهوى، ابن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مراجعة: محمد الغزالي، القاهرة، دار الكتب الإسلامية، ط١، ١٩٦٢.
- الزهرة: ابو بكر محمد بن داود الاصفهاني، تحقيق ابراهيم السامرائي، الاردن الزرقاء، مكتبة المنارة، ١٩٨٥.
- سيكولوجية القيم الإنسانية، د. عبد اللطيف خليفة، القاهرة، دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط١، ٢٠١٢م.
- شعر ابو بكر بن القوطية (من اعيان المائة الخامسة)، صنعة هدى شوكت بهنام، مجلة المورد، م١٤، ع١، ١٩٨٥م.
- شعر ابي جعفر بن سعيد، تحقيق د. احمد حاجم مجلة المورد، ع١، م٢١، ١٩٩٣ م.
- الشعر الاندلسي في عصر الطوائف، هنري بيرس، ترجمة د. الطاهر احمد مكي، مصر، دار المعارف، ط١، ١٩٨٨ م.
- الشّعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، إميليو غارثيا غومث، تحقيق: حسين مؤنس، دار الرّشاد، القاهرة، (د. ت).
- شعر المعتضد بن عباد، تحقيق رضا السويسي، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٦.
- صحيح البخاري ابو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت: ٢٥٦ه)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، ١٤٠٧ه.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه الاندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، ط٢، ١٩٠٣.
- علم الاجتماع النّظري – كارل منهايم– ترجمة د. احسان محمد الحسن، بغداد، دار الكتب للطباعة والنّشر، ١٩٩٣.
- العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٤، ١٩٧٢.

- القيم الإسلامية في التّعليم وأثرها على المجتمع، محمد أمين الحق، دراسات الجامعة الإسلامية العالمية، المجلد التّاسع، ٢٠١٢م.
- القيم الجمالية في الشعر الاندلسي، د. ازاد محمد كريم، عمان، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣ م.
- القيم الجمالية في شعر المرأة الأندلسية، د. احمد حاجم الرّبيعي، عمان، دار غيداء للنشر والتّوزيع، ط١، ٢٠١٦م.
- القيم الحضارية في الشّعر الاندلسي، محمد جبار الخزرجي كلية الاداب الجامعة المستنصرية اطروحة دكتوراه ٢٠١٢.
- القيم في الشّعر الجاهلي، د. توفيق ابراهيم صالح، عمان، دار غيداء للنشر والتّوزيع، ط١، ٢٠١٩م.
- المركزي والمهمش في الشعر الاندلسي في عصري الطوائف والمرابطين، د. محمد العبيدي، عمان، دار غيداء للنشر والتوزيع.
- النّقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، (د. ت).
- هو علي بن محمد بن علي بن الحسن، درس بقرطبة، كان أديباً بليغاً، عالماً حافظاً ذاكراً للآداب. ينظر: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، للضبي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري اللبناني، ط١، ١٩٨٩م.

الدوريّات والمجلّات:

- شعر أبي بكر بن القوطية (من أعيان المائة الخامسة)، صنعة هدى شوكت بهنام، مجلة المورد، م١٤، ع١، ١٩٨٥م.
- شعر أبي جعفر بن سعيد، تحقيق د. أحمد حاجم مجلة المورد، ع١، م٢١، ١٩٩٣م.

الرسائل والأطاريح:

- القيم الحضارية في الشّعر الاندلسي، محمد جبار الخزرجي كلية الاداب الجامعة المستنصرية اطروحة دكتوراه ٢٠١٢.